

شرح الأربعين النووية

العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المغربي
- رحمه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث الأول

عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة في هذا الباب.

المفردات

النية: القصد.

نوي: قصد.

الهجرة: الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

ينكحها: يتزوجها.

المعنى العام

لا يعمل الإنسان عملاً إلا لغرض من الأغراض قد دعاه لذلك العمل فمن قصد بعمله وجه الله وطلب رضاه، وكان العمل موافقاً لسنة النبي ﷺ فإن الله يقبله ويثيبه عليه، ومن عمل عملاً مما يراد به وجه الله وقصد به الحصول على غرض من الأغراض التي هي من حظوظ النفس وشهواتها كمن يجاهد ويقاقل بشجاعة ليقول الناس هذا شجاع بطل ويمدحوه، أو لينال رتبة عسكرية عالية أو جائزة سنوية أو غنيمة فليس له ثواب عند الله لأنه لم يقصد بعمله وجه الله، فقلوه فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله أي بالقصد فهجرته إلى الله ورسوله بالثواب والجزاء ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو لتجارة يرجو رواجها أو زراعة يأمل نجاحها أو امرأة يريد أن يتزوج بها أو غير ذلك من حضوض النفس وأهوائها فهجرته لا يقبلها الله ولا يثيبه عليها. وإن أظهر أن هجرته لله وهو يطن خلاف ذلك، فإن ذلك لا ينفعه عند الله فتيلًا، بل يفضحه الله ويبطل عمله لأنه مرء. وقد حكى أن رجلاً هاجر إلى المدينة وأظهر أنه هاجر إلى الله ورسوله ليجاهد معه ويتعلم منه ويتعاون مع

المسلمين على إقامة الدين وإعزاز الإسلام، وكان قصده في الحقيقة أن يتزوج امرأة تسمى «أم قيس» فكان ذلك سبب قول النبي ﷺ ذلك الحديث فافتضح الرجل وأطلع الناس على قصده وصاروا يدعونه مهاجر أم قيس.

الحديث الثاني

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان». رواه البخاري ومسلم.

المفردات والمعنى العام

على خمس: أي: على خمس قواعد:

شبه الإسلام بالخيمة التي لا تقوم إلا على أعمدة.

الشهادة: العلم والإقرار بالمشهود به.

إقام الصلاة وإقامتها: فعلها قائمة أي كاملة بشروطها وأركانها والخشوع فيها والمحافظة على أوقاتها وجماعتها، فليس كل مصل مقيماً للصلاة، وقد مدح الله المقيمين الصلاة في مواضع كثيرة من كتابه وذر المصلين الذي لا يقيمون الصلاة فقال: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُزَاهَوْنَ ۖ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَنَفِّضُونَ ۚ﴾ وقال في وصف المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَّانٍ يُزَاهَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكَّرُونَ ۚ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا ۚ مُذَبِّحِينَ بِحَنٍّ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾.

الزكاة: الطهارة والنماء وإيتاؤها إعطاؤها المستحقين بواسطة إمام المسلمين أو نائبه فإن لم يوجد استحب للمعطي أن يوكل شخصاً عالمًا أميناً يؤديها عنه فإن لم يجد باشر إعطائها بنفسه.

الحج: هو زيارة البيت وأداء المناسك على الوجه المشروع.

الصوم: في اللغة هو الإمساك عن أي شيء وفي الشرع هو الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في أيام رمضان إلا المريض والمسافر فإنهما يفطران ويقضيان ما أفطراه من الأيام وليست أركان الإسلام مقصورة على

هذه الخمس وإنما اقتصر عليها لأن أكثر الناس يستطيعونها. وأما بقية الأركان كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس كل الناس يستطيعون ذلك.

الحديث الثالث

عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». رواه البخاري ومسلم، وفي رواية مسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

المفردات

المراد بالأمر هنا: الدين.

وإحداث الحدث: الابتداء في الدين.

ورد: أي مردود.

ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا، معناه أنه عمل عملاً من الأعمال المشروعة في الإسلام إلا أنه خالف فيه سنة النبي ﷺ.

المعنى العام

إن دين الإسلام قد أكمله الله قبل وفاة رسوله فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وفي كتاب الاعتصام للشاطبي قال مالك يعني ابن أنس الإمام المدني المشهور: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما لم يكن يومئذ ديناً لا يكن اليوم ديناً. وكل شيء أخذ بعقد فاسد يجب رده كذلك، وفي صحيح البخاري أن رجلين جاءا إلى النبي ﷺ وقال أحدهما يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله، وقال الآخر نعم يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ والله لأقضين بينكما بكتاب الله. فقال الرجل «إن ابني كان عسيفاً عند هذا الرجل فزني بامرأته، وإنني أخبرت أن علي ابني الرجم فافتديته بمائة شاة ووليدة» فقال رسول الله ﷺ: «الوليدة والغنم رد عليك وإن علي ابنك جلد مائة وتغريب سنة، واغدي يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فأرجمها»، وفيه دليل على أن من ابتدع في الدين بدعة فأنمها عليه، وعمله مردود عليه وأنه يستحق الوعيد. وقد قال ﷺ: «من أحدث حدثاً أو آوي محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». رواه البخاري أيضاً.

الحديث الرابع

عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمي ألا وإن حمي الله محارمه، وألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». رواه البخاري ومسلم

المفردات

الحلال: هو المباح الذي أذن الله في فعله أو سكت عنه القرآن والحديث.
الحرام: هو الذي نهى الله عن فعله بالقرآن أو الحديث نهياً محتماً يترتب عليه العقاب.
المشبهات: الملتبسات وهي الأمور التي لا يتضح أنها حلال ولا أنها حرام.
اتقى: تجنب.
استبرأ: برأ عرضه ودينه وصانها.
العرض: محل الذم والمدح من الإنسان.
الدين: في اللغة الجزاء، وفي الاصطلاح ما يعتقده الإنسان.
وقع: أصاب.
الراعي: الذي يحرس الماشية في حالة رعيها.
الحمى: أرض منع الملك رعيته من رعي مواشيه فيها وجعلها خاصة بدوابه.
المضغة: القطعة من اللحم.

المعني العام

قسم النبي ﷺ في هذا الحديث الأمور التي يأتيها المسلم أو يذرها إلى ثلاثة أقسام:
(أ) قسم مباح واضح لا شك فيه.
(ب) وقسم ممنوع واضح لا شك فيه.
(ج) وقسم مبهم قد اختلفت فيه الآراء فأشبه الحلال من وجه وأشبه الحرام من وجه آخر ولا تطمئن إليه نفس المؤمن الحريص على مرضاة ربه الخازم في أمر دينه، فالقسمان

الأولان ليس فيهما التباس. فمن فعل الأول فلا إثم عليه ولا حرج، ومن فعل الثاني فهو على بصيرة من أمره عالم بما اجترح من سوء فعله، جدير بأن يتوب ويرجع إلى الله، وأما القسم الثالث ففيه الإشكال. فمن كان حازماً حريصاً محافظاً صائناً لدينه فإنه يتجنبه، ومن كان متهاوناً ضعيفاً غير مالك لهواه فإنه يرتكبه فيجره إلى الحرام المحض، ونصح لنا النبي ﷺ أن نأخذ بجانب الحزم وأن لا نرخص لأنفسنا في الوقوع في المشتبهات، وبذلك نسلم من الوقوع في المحرمات. ومن أمثلة المشتبهات المنصوص عليها ما رواه البخاري في صحيحه عن عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت إني أرضعت عقبة والتي قد تزوج بها فقال لها عقبة ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتي، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فسأله فقال كيف وقد قيل ففارقها عقبة ونكحت زوجاً غيره، فإمساك هذه المرأة بعد ما قيل أنها أختها من الرضاعة من المشتبهات تشبه الحلال من جهة أن عقبة لم يسمع قط لا من أمه، ولا من غيرها أن هذه أرضعته وأرضعت زوجته وذلك مستبعد في العادة أن ترضعه وترضع المرأة التي تزوج بها، ثم لا يعرف ذلك أحد منهما ولا من أقاربهما فيحتمل أن المرأة كذبت لتفريق بينه وبينها ليتزوجها غيره، ويحتمل أن تكون أرضعتها في مناسبة من المناسبات ولم يتفق أن ينتشر خبر إرضاعها وبقي منسياً إلى أن تزوج بها فكان الأحوط والأحزم أن يفارقها وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى:

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذرارك من قول إذا قيلاً

ومن أبلغ التشبيه وأغربه تشبيه النبي ﷺ المتساهل في إتيان الأمور المشتبهات التي يجهل حقيقتها كثير من الناس بالراعي بقرب الحمى يتوقع أن ترتع فيه مواشيه فيحل به الهلاك وكذلك قوله ألا وإن في الجسد مضغة يريد بذلك العقل المدبر لشؤون الإنسان والعرب تسمي القوة المدبرة قلباً. قال الله تعالى في سورة ق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ آي: عقل، وليس المراد به القلب الصنوبري المادي فإنه لا يخلو منه إنسان، فإذا كانت النفس المدبرة صالحة صلحت أعضاء الجسم كلها لأنها خاضعة لأوامرها، وإذا فسدت هذه القوة فسد سائر الجسم، فالنفس المظلمة لا تأمر إلا بخير والنفس الأمارة بالسوء تجر الجسم إلى الوبال.

الحديث الخامس

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». رواه مسلم

المفردات

أئمة المسلمين: الخلفاء ومن ينوب عنهم.
وعامتهم: من ليس كذلك.

المعنى العام

هذه الصيغة من صيغ الخصر كقولهم الحج عرفة أي أهم أركانه الوقوف بعرفة فمن وقف بها أمكنه أن يتدارك كل ما فاتته من مناسك الحج ومن فاتته الوقوف بها فقد فاتته الحج في تلك السنة، فكذلك النصيحة من كانت عنده النصيحة حملته على المحافظة على سائر أمور الدين والإخلاص فيها، ومن فقد النصيحة فلا دين له، وفسر النبي ﷺ النصيحة بالإخلاص لله تعالى ظاهراً وباطناً بعبادته وحده لا شريك له، وبتعظيم حرمانه وطاعته ومراقبته وإتباع رضوانه وتجنب ما يسخطه والحب فيه والبغض فيه والموالاتة له والمعاداة له وما إلى ذلك والإخلاص لكتاب الله بالإيمان به واتخاذ إماماً وحكماً وتحكيمه في كل نزاع والرضا بحكمه وتحليل حلاله وتحريم حرامه وتلاوته حق تلاوته بالاجتهاد في تجويده والخشوع عند سماعه وقراءته والعناية بتعلمه وتعليمه، والإخلاص لرسوله بمحبته أكثر من النفس والولد والمال ومن سائر الناس أجمعين وطاعته وامتنال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ونصرتة حياً وميتاً وإتباع سنته وتعظيمها وتعلمها وتعليمها ومحبة أهل بيته المتبعين لسنته والإخلاص لخلفاء المسلمين بطاعتهم في المعروف وإعانتهم على أداء واجبهم في الحكم وإرشادهم وعدم الخروج عليهم ما لم ير المرء كفراً بواحاً عنده من الله فيه برهان والإخلاص لعامة المسلمين بأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويجتهد في إيصال الخير إليهم ودفع الشر عنهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم والصدق في معاملتهم وترك أذاهم والصبر والصفح عنهم وإذا كانت النصيحة شاملة لهذه المعاني وما يجري مجراها فقد جمعت الدين كله حقيقة وصدق على تاركها أنه لا دين له.

الحديث السادس

عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبياءهم». رواه البخاري ومسلم

المعنى العام

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وقد أصاب المسلمين ضرر عظيم بسبب الغفلة عنه أو سوء فهمه وقد قسم النبي ﷺ ما جاء به من الأوامر والنواهي إلى قسمين فما نهانا عنه نهياً قاطعاً وهو المحرم. يجب علينا أن ننتهي عنه وأن نتجنبه ولا نرخص لأنفسنا في فعله أبداً وقد عضي الرسول خلق كثير فلم يجتنبوا ما نهاهم عنه، بعضهم فعل ذلك إتباعاً لهواه مع اعترافه بالإساءة وشيء من التأسف والكراهية راجيا أن يتغلب عقله على هواه فيتوب وهذا يرجي له خير وصلاح وبعضهم تحيل في تحليل ما حرم الله بوجوه من التأويلات وارتكب المنهي مطمئن النفس غير آسف ولا مكترث فهؤلاء شر العصاة وقلما يرجعون إلى الحق والقسم الثاني وهو الأوامر قال فيه النبي ﷺ «فأتوا منه ما استطعتم» وكقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فكل فرض عجز عنه الإنسان فلا حرج عليه في تركه، بل كل فرض لا يستطيع فعله إلا بمسقة عظيمة فإنه كذلك يسقط عنه ولذلك أبيح الإفطار للمريض في رمضان، وأبيح الفطر للمسافر، وكره له أن يصوم إذا كان في الصيام مشقة. وقد علل النبي ﷺ ذلك بقوله: «فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤايلهم واختلافهم على أنبيائهم» فبين لنا صلاة الله وسلامه عليه أن كثرة المسائل تهلك الأمم لأن السؤال عما لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله، ولا دعت الحاجة إلى السؤال عنه وإنما يقصد السائل التكلف والتنطع، إما ليظهر سعة علمه أو عجز المسؤول عن الجواب أو كثرة القيل والقال مما يفضي إلى الجدال والمراء ثم إلى القتال والعداوة والبغضاء وذلك هو الهلاك وقد كان السلف الصالح إذا سألهم سائل عن مسألة ليست في كتاب الله ولا في سنة رسوله استحلّفوه بالله أنها وقعت فإن حلف لهم اجتهدوا رأيهم وأجابوه به قائلين هذا رأي رأينا فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأً فمننا، والله ﷻ سئل عن مسألة منه، قال: الله ﷻ. ف. ١٤٠٢ هـ.

معناه كل من ولد مسألة من المسائل التي لم يرد بها نص فإن الله يوقفه يوم القيامة ويسأله عن تلك المسألة التي فتن بها الناس ويعذبه عليها ولو أننا نظرنا في كتب الفروع المذهبية لوجدنا أكثرها من هذا القبيل.

الحديث السابع

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». حديث حسن، رواه الترمذي وغيره هكذا.

المعنى العام

نفهم من هذا الحديث أن بعض المسلمين إسلامهم حسن لقوة إيمانهم وكثرة طاعتهم لله وبعدهم عن المعاصي والشبهات، وبعض المسلمين إيمانهم ناقص وإسلامهم لم يبلغ درجة الحسن والكمال فمن آيات حسن الإسلام أن يشتغل المسلم بما يعود عليه بالنفع في دينه أو في دنياه وما سوي ذلك من العبث قولاً كان أو فعلاً يتركه ويقال الوقت سيف صارم إن لم تقطعه قطعك يعني إن لم تعممه بالعمل النافع قطعك عن الخير وكان حسرة عليك وندامة.

الحديث الثامن

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». رواه البخاري ومسلم

المعنى العام

في هذا الحديث نفهم الإيمان عن كل شخص لا يحب لأخوانه المسلمين من الخير مثل ما يحب لنفسه وهناك أحاديث وردت بهذا المعنى منها «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ومنها «الدين النصيحة» المتقدم الذكر ومنها «من غشنا فليس منا» ومنها في حديث «سبعة يظلهم الله في ظله، واثنان تحابا في الله اجتماعاً علي ذلك وتفرقاً عليه». وقد جاء في الخبر «أوثق عري الإيمان الحب في الله والبغض في الله والموالاتة لله والمعاداة لله» وهو في القرآن كثير قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ في سورة الحجرات، وفي سورة المائدة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة الممتحنة ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ

«أَمِنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولِيَاءَ» وقال تعالى في سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . فإن كان الشخص الذي لا يجب لأخيه المؤمن ما يجب لنفسه خالياً من محبة الخير للمؤمنين بالمرّة بحيث يستوي عنده المؤمن وغيره فهذا لا يكون إلا كافراً قطعاً وإن أظهر الإسلام فهو منافق. وإما إن كان يجب الخير للمؤمنين في الجملة ويهتم بشؤونهم ولكنه قد يقصر في حق المؤمنين لسبب من الأسباب فإن ذلك نقص في إيمانه فيكون النفي في حقه للكمال.

الحديث التاسع

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». رواه البخاري ومسلم

المفردات والمعني العام

الثيب: هو من تزوج من الرجال والنساء، فإذا زنى بعد التزوج والمباشرة فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت إن اعترف أو قامت عليه البينة.

النفس بالنفس: من قتل مؤمناً متعمداً غير مدافع عن نفس ولا مال ولا عرض. بشرط الكفاءة وهي أن يكون المقتول حراً مسلماً على ما ذهب إليه الجمهور وقالت الحنفية بقتل المسلم بالكافر والحر بالعبد.

التارك لدينه: المسلم الذي ارتد عن الإسلام لأنه بإسلامه قد عاهد الله ورسوله والمسلمين أن يكون معهم، فإذا نقض عهده وصار مع أعدائهم وجب قتله لنقضه العهد، وليس هذا من الإكراه لأنه دخل في الإسلام مختاراً وعاهد عليه مختاراً. وقوله المفارق للجماعة: أي لجماعة المسلمين بعد أن كان منهم مرق منهم.

الحديث العاشر

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». رواه البخاري ومسلم

تضمن هذا الحديث الكريم ثلاثة أمور:

وقال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ وفي الحديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يهوي في النار سبعين خريفاً» وفيه «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» وقال الشاعر:

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

فَعَثَرَتْهُ مِنْ فِيْهِ تَرْمِيْ بِرَأْسِهِ وَعَثَرَتْهُ بِالرَّجْلِ تَبْرَأُ عَلٰى مَهْلٍ

وقال آخر:

ما أن ندمت على سكوت مرة ولقد ندمت على الكلام مراراً

وقال غيره:

واعجبا لامرئ ظلوم مستيقن أنه يموت

ويقال إذا كان الكلام من فضه فالسكوت من ذهب، وذلك كله مقيد بما تقدم من كون الكلام فيه ضرر أو عبث. أما النطق بالحق حين يجب أو ينبغي النطق به فلا يدخل في ذلك

الساکت عن الحق شیطان أخرس.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام ناره» رواه أحمد في مسنده وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» رواه الترمذي

الأمر الثاني: إكرام الضيف: وهو من الخصال الحميدة التي جبل عليها الكرام وحرم منها م وهو من طباع العرب المستحسنة في جاهليتهم وإسلامهم. وقد بالغ أجواد العرب في حتى قال قائلهم:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

وقال غيره:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

لما حكم الضيافة في الإسلام فالأحاديث والآيات تدل على وجوب الضيافة، والظاهر كلام العلماء المحققين إن الضيافة واجبة في الأماكن التي لا يجد الضيف فيها مأوى ولا ما بالأجرة أو يكون منقطعاً ليس عنده ما ينفقه وهو ابن السبيل الذي قال الله سبحانه في: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْمَسْكِينِ وَالْجَارِ الضَّعِيفِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَآلِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ في سورة النساء.

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ وَنُوحًا إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ شَمِينٍ ٥٢ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٥٣ في سورة الذاريات. وقد ل العرب الضيافة نصف البر فقال قائلهم:

بني إن البر شيء هين المنطق اللين والطعيم

ومن سنة النبي ﷺ أن يخدم ضيوفه بنفسه كما في حديث أبي هريرة في صحيح البخاري النبي ﷺ دخل بيته فوجد لبنا قد أهدى إليه فأمر أبا هريرة أن يدعوه له أهل الصفة بهم. فأخذ النبي ﷺ يملأ القدح بيده ويناول أبا هريرة فيسقيهم حتى ارتووا كلهم ثم أبا هريرة حتى لم يجد له مساعداً، ثم شرب هو وهذا معني الخبر «ساقى القوم آخرهم» وخادم القوم سيدهم. وأما في المدن التي توجد فيها الفنادق والمطاعم فلا تجب بافة إلا لمن انقطعت به الأسباب ولم يجد ما ينفقه فتكون ضيافته فرض كفاية إذا قام بها

بعض أهل البلد سقط الفرض عن الباقيين، وإذا تركوها جميعاً أثموا.

الأمر الثالث: إكرام الجار وترك أذاه وهو من أعظم آداب الإسلام وفي الحديث الصحيح «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وفي الصحيح أيضاً أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل من يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بوائقه» أي أذاه وشره. وقال النووي في شرحه قال رسول الله ﷺ من آذى جاره ملكه الله داره. وأعلم أن الجار على أقسام بعضها أكثر حقوق من بعض فإذا كان الجار مسلماً من ذوي القربى كان له ثلاثة حقوق حق الإسلام وحق القرابة وحق الجوار. وإن كان مسلماً من الأبعد فله حقان حق الإسلام وحق الجوار وإن كان كافراً فله حق واحد وهو حق الجوار، وقد سئل النبي ﷺ عن أقرب الجيران فقال أقربهم منك باباً.

وقال النووي: الجار يقع على أربعة الساكن معك في البيت، ويقع على من لاصق بيتك، ويقع على أربعين داراً من كل جانب ويقع على من يسكن معك في البلد. قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَجَازُوا وَتَكُ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإذا كان أهل البلد الواحد كلهم جيراناً بعضهم لبعض وجب على كل واحد منهم أن يكرم الآخر وأن لا يؤذيه وهذا اسمي ما تصل إليه المدنية الفاضلة التي هي أعلى الكمال الإنساني وفي ذلك دليل على وجوب الضمان الاجتماعي.

الحديث الحادي عشر

عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني قال: «لا تغضب فردّه مراراً قال لا تغضب». رواه البخاري

المعنى العام

الغضب من طبائع الإنسان التي لا يستطيع أن ينفك عنها والمراد بالنهي هنا ألا ينفذ ما يقتضيه الغضب من الأذى والانتقام. وقد جاءت أحاديث كثيرة في النهي عن الغضب وفي بعضها أن الغضب جرة من الشيطان وفي حديث آخر جاء أمر الغضبان بالجلوس والاضطجاع والتوضؤ والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ

وَالضَّرَاءُ وَالْكُتُومُ وَالْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ». وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سأل أصحابه عن الصرعة فقالوا الذي يصرع الناس كثيراً فقال ليس الشديد بالصرعة ولكن الصرعة هو الذي يملك نفسه عند الغضب وكل ذلك في الغضب للنفس، وأما الغضب للحق فمحمود وهو من الإيمان وفي الحديث الصحيح عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمة الله لم يقم شيء لغضبه فمن رزقه الله الحلم وأقدره على ضبط نفسه عند الغضب فقد أنعم عليه نعمة عظيمة.

الحديث الثاني عشر

عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». رواه مسلم

المعنى العام

إن الله كتب الإحسان أي: فرضه على كل شيء أي في كل حال فعلي هنا بمعنى في، فإذا قتلتم إنسانا قصاصا لأنه قتل نفسا بغير حق فأحسنوا هيئة قتله ولا تعذبوه في القتل وذلك بأن تكون آلة القتل حادة لا يتألم المقتول بها كثيرا عند القتل وإذا ذبحتم حيوانا للأكل فأحسنوا هيئة ذبحه بأن تكون السكين حادة لا تعذبه كما صرح بذلك بقوله «وليحد أحدكم شفرته» أي: سكينه وليرح ذبيحته، وإذا كانت الرحمة واجبة حتى في حق المقتول والمذبوح فما بالك بها في غيرهما من الضعفاء المحتاجين إليها، فالإسلام دين الرحمة وقد قال الله تعالى في سورة الأنبياء خطاباً لنبيه محمد ﷺ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» ولم يقل للمسلمين وقد أمر أمته أن يقتلوا به فقال في سورة الأحزاب: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» وثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وفي معناه حديث آخر «الراحمون يرحمهم الرحمن» فلا يكون الإنسان مقتديا برسول الله ﷺ إلا إذا كان رحيما بالمؤمنين والكافرين والحيوان الأعجم إلا المحاربين فلا رحمة لهم إلا إذا أسروا أو جرحوا وصاروا في قبضة المسلمين ونزعوا سلاحهم فحينئذ يستحقون الرحمة ولا خير في الحياة بلا رحمة.

الحديث الثالث عشر

عن أبي ذر، جندب بن جنادة ومعاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». رواه الترمذي، وقال حديث حسن، وفي بعض النسخ حسن صحيح

المعنى العام

تقدم أن التقوى هي امتثال ما أمر الله ورسوله به واجتناب ما نهى الله ورسوله عنه، «حيثما كنت» أي: سواء أكنت في موضع يراك الناس فيه أو كنت في خلوة لا يراك فيها أحد فإن الله لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فراقبه في ذلك فالتقي هو الذي تكون تقواه في السر مساوية لتقواه في العلانية.

«واتبع السيئة الحسنة» أي: إذا صدرت منك سيئة على سبيل الغفلة والجهالة فاعمل حسنة تزيل بها تلك السيئة، فلو أن الإنسان حاسب نفسه واتبع كل سيئة حسنة ما بقيت عليه سيئة، وهذا في حق الله تعالى وأما في حق المخلوق فلا بد من رد المظالم أو طلب المسامحة ووقوعها، وخالق الناس بخلق حسن أي عاملهم بأخلاق حسنة، كيفما كانوا من العظماء أو الضعفاء ومن الحق أن أقول إنني تعلمت عملياً من فضلاء الألمانين أنهم إذا وعدوا شخصاً يفون له بوعده ولا يختلف ذلك باختلاف الموعد بل يستوي عندهم في ذلك العظيم والحقير والذي لا يخشى ولا يرجى لأن الباعث لهم على الوفاء هو الحياء من أنفسهم وحب الكمال وعدم الرضا بالإخلاف وليس الباعث لهم خوف الموعد أو رجاءه. وهذا الخلق مما أكده الإسلام في حق الموافق والمخالف. وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان» وفي رواية مسلم «وإن صلي وصام وزعم أنه مسلم» وفي البخاري أيضاً أن النبي ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وخيارهم خيارهم لنسائهم» وما أصاب البلاد الشرقية من التخلف والوهن في جميع الميادين إلا بسبب ضعف أخلاقها.

الحديث الرابع عشر

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي. «احفظ الله تجده أمامك. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وأعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطأك، وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

المفردات والمعني العام

كنت خلف النبي: أي راكباً معه على دابة واحدة فقال يا غلام.

الغلام: هو الصبي الذي لم يبلغ مبلغ الرجال.

احفظ الله: أي احفظ أوامره بالعمل بها ونواهيها بالانتهاء عما نهى عنه.

يحفظك: من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

احفظ الله: أي أمره.

تجده تجاهك: أينما توجهت وسألت فضله - أعطيته.

وقوله «إذا سألت فاسأل الله»: قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (إن كانت الحاجة التي

يسألها لم تجر العادة بجريانها على أيدي الخلق كطلب الهداية والعلم والفهم في القرآن والسنة

وشفاء المرض وحصول العافية من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة. سأل ربه ذلك يعني ولا

يسأل غيره، وإن كانت الحاجة التي يسألها جرت العادة أن الله سبحانه وتعالى يجريها على

أيدي خلقه كالحاجات المتعلقة بأصحاب الحرف والصنائع وولاية الأمور سأل الله تعالى أن

يعطف عليه قلوبهم ولا يدعو الله تعالى باستغنائهم عن الخلق لأنه ﷺ سمع علياً يقول: اللهم

اغننا عن خلقك، فقال: لا تقل هكذا فإن الخلق يحتاج بعضهم إلى بعض ولكن قل اللهم

اغننا عن شرار خلقك وأما سؤال الخلق والاعتماد عليهم فمذموم) انتهى كلام النووي.

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وهذا إشارة إلى قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقوله «إذا استعنت فاستعن بالله» يقال فيه مثل ما قيل فيما قبله فالاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء المريض بالهمة والحال والتوجه أو قضاء الدين أو إعطاء الأولاد والأرزاق والمراتب العالية وما أشبه ذلك فلا تجوز الاستعانة فيه إلا بالله قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِأَيِّ شَيْءٍ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وأما فيما يقدر عليه الناس من الأسباب كأن يستعين الإنسان بشخص آخر على دفع لص أو سبع أو إطفاء نار فهو جائز لا ينافي الاستعانة بالله وقوله «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا ... الخ» مصداقه في كتاب الله قوله في سورة يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَافِيَ لَهُ إِلَّا هُوَ ذَلِكَ يُذَكِّرُ نَحْمَدُ اللَّهَ لَفَضْلِهِ﴾. فما علم الله أنه سيصيب الإنسان من خير أو شر لا بد أن يصيبه. فلا ينبغي ولا يجوز أن يحمله الطمع في الناس أو الخوف منهم أن يعصى الله ظلما منه أن معصية الله وإرضاء الناس بإسقاط الله يوصله إلى نيل رغائبه أو بمنعه من المصائب. وأما الحذر والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله واعتقادي أنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له فهذا لا بد منه وقوله «رفعت الأقلام وجفت الصحف» كناية عن قضاء الله وعلمه بما سيحدث للإنسان وبما سيصيبه من خير أو شر.

أما رواية غير الترمذي قوله «تعرف إلى الله في الرخاء ... الخ» يعني أعمل بطاعة الله واتبع رضوانه في حال الرخاء من صحة وغني وراحة بال وقوة ونصر.

يعرفك في الشدة - أي ينقذك حين نحتاج إلى إنقاذ في وقت ضعفك ومرضك وفقرك واضطرارك لأن طاعة الله في وقت النعم شكرها والشكر يوجب المزيد.

قوله «واعلم أن ما أخطأك ... الخ» هو بمعنى قوله أن الأمة لو اجتمعوا ... الخ وأعلم أن النصر مع الصبر ولا ينتصر جيش إلا إذا كان صابرا. قال تعالى: ﴿يُنَاقِضُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاللَّهُ يُفْلِحُكُمْ﴾. آخر سورة آل عمران

الكرب: هو شدة البلاء.

والفرج: زوال الشدة فمتى اشتدت الكربة وبلغت أقصى شدتها انحلت عقدتها وانفرجت أزمتها وفتحت أبواب السلامة. قال الشاعر:

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليلك بالبلج

وقوله «وإن مع العسر يسرا» في الحديث أن النبي ﷺ قال «لن يغلب عسر يسرين» إشارة إلى قوله تعالى في سورة ألم نشرح ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ والمعرفة إذا تكررت توحدت لأن الألف واللام بخلاف النكرة فإنها تبقى على تعددها. فالعسر حينئذ واحد واليسر اثنان.

الحديث الخامس عشر

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». رواه البخاري

المفردات والمعني العام

الحياء: انقباض في النفس يحمل صاحبه على ترك ما يعاب عليه. وقد جاء في الحديث الصحيح أن الحياء شعبة من شعب الإيمان، وإنما يكون الحياء من الإيمان إذا كان يمنعه من معصية الله ويحمله على طاعته ولا يمنعه من قول الحق وإن كان مرا وأداء الواجب وإن كرهه الناس لذلك فقد يكون أداء الواجب مما يعاب عند من جبلوا على تضييعه وفعل السيئات مما يحمد عند الفساق، فالحياء الذي يحمل صاحبه على فعل المنكرات وترك الواجبات حياء مذموم وضعف وخور، وليس من الإيمان. ومعني هذا الحديث مختلف فيه عند شراح الحديث على وجهين:

الوجه الأول: إذا كان الشيء الذي تريد أن تصنعه لا تستحي من الناس ولا من الله في عمله فاصنعه وأما إذا كان مما يستحي منه من الله أو من الناس فلا تصنعه، فيكون الأمر على هذا للإباحة.

الوجه الثاني: أن معناه إذا لم تتصف بالحياء الذي يمنع العاقل من إتيان ما يعاب عليه شرعاً وطبعاً فاصنع ما شئت فستدوق وبال أمرك، وتنال عقابك، فيكون الأمر للتهديد كما تقول لمن يفعل ما يفضي به إلى الهلاك، لعب بالنار فسوف ترى، ومنه قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا

يَفْتَنَّمُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» وقوله تعالى ﴿ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي أَخْرِجُ مَا تَخْذَرُونَ ﴾ قوله: «مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى» أي: مما بقي عند الناس من كلام الأنبياء السابقين قبل محمد ﷺ وبهذا المعنى جاء قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

ومما يذم فيه الحياء سؤال الإنسان عما لا يعلم من العلم النافع وقد قيل اثنان لا يتعلمان مستحي ومستكبر.

الحديث السادس عشر

عن سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». رواه مسلم

المفردات والمعنى العام

جمع النبي ﷺ الإرشاد والنصح في كلمات قليلة فالإيمان بالله يشمل الإيمان بكتبه ورسوله وما جاء به الرسول من عقائد وواجبات وأخلاق وآداب، والاستقامة هو أداء تلك الواجبات مع ترك المنهيات والتحلي بالفضائل، ولا يمكن أن يكون الشخص مستقيماً إلا إذا تعلم وعرف ما يأتي، وما يذر من أمر دينه وأخلاقه لقوله تعالى مخاطباً رسوله في سورة هود ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فالاستقامة التي ترضي الله مقيدة بكونها مطابقة لأمره وليس فيها مخالفة ولا بدعة، فإذا كان النبي يجب عليه أن يستقيم كما أمره الله لا كما يشاء وهو معصوم فكيف بغيره أو مصداق هذا الحديث في سورة «حم فصلت» قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ تَخُنْ أُولَئِكَ قَوْمًا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿ تَزَالُ مِنْ عَذَابٍ رَجِيمٍ ﴾. وقوله «تنزل عليهم الملائكة» أي: عند موتهم.

الحديث السابع عشر

عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرايت إذا صليت

المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً
أدخل الجنة؟ قال: «نعم». رواه مسلم

المفردات والمعني العام

المكتوبات: الصلوات الخمس، ومعني المكتوبات المفروضات، لأن غيرها ليس بفرض.
وأحللت الحلال: اعتقدت حله.
وحرمت الحرام: تنجبت معتقدا حرمة.

ولم يذكر بقية الأركان وهي الحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الحج
فلعله لم يكن قد فرض أو كان مفروضاً ولكن على غيره إذا لم يكن له ما يحج به من زاد
وراحلة، وأما الجهاد فلا يكون فرضاً إلا إذا أمر الإمام بالنفير العم، وأما الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات إذا قام به بعض المسلمين سقط عن سائرهم.
وكذلك يقال في الزكاة فلعل الرجل لم يكن عنده من المال ما يزكيه. فاقصر على الفرائض
التي لا تسقط عن أحد إلا في النادر عند فقدان العقل وعند الهرم الذي لا يستطيع الشيخ
والشيخة أن يصوما فيه، وقوله لم أزد على ذلك فيه دليل على أنه لا يجب من الصلوات إلا
خمس في كل يوم ولا من الصيام إلا رمضان. فما جرت به عادة الناس هنا من إيجابهم ما
اعتادوه من الصلوات في مساجدهم كركعتين قبل الفريضة وبعدها على غيرهم فتراهم
يقولون بعنف لمن لم يفعل كفعليهم قم صل السنة، فربما ناله منهم تكال إن لم يفعل ما أمروه
به، فذلك منهم جهل عظيم وتنفير للناس من الإسلام. وأهل الهند في هذا الباب شر ألف
مرة من أهل العراق، فإن الغريب إذا دخل مساجدهم يكون على خطر عظيم من الضرب
والشتم والإهانة فهؤلاء خرجوا عن هدي الإسلام وخرجوا بعد ذلك عن المروءة
والإنسانية وصاروا وحوشاً ضارية.

الحديث الثامن عشر

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر
الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض،
والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو

فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». رواه مسلم

المفردات والمعني العام

المراد بالطهور: هو الطهارة التي تصح بها الصلاة من غسل ووضوء عند موجبهما. والشطرن، النصف، فإذا تطهر المسلم وصلي صلاة كاملة مرضية فقد تم إيمانه، والدليل على ذلك قوله تعالى في سياق الكلام على الصلاة في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ولما كانت الصلاة لا تصح إلا بطهارة فالطهارة نصفها.

«والحمد لله تملأ الميزان» أي: حمد الله على كل حال يملأ ميزان عبده حسنات يوم القيامة. وقوله «وسبحان الله والحمد لله تملآن ... الخ» إذا انضم التسبيح وهو تنزيه الله عن كل نقص إلى الحمد وهو الثناء على الله بقلب مخلص فإن ثواب ذلك يملأ ما بين السماء والأرض وهو كناية عن كثرة، وأنه لا حده.

قوله «والصلاة نور» أي: تنور قلب صاحبها وتزيل عنه الغم والكرب، وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر أي غمه فزع إلى الصلاة فيجد فيها راحة وقرة عين، وبسبب ما فيها من النور تنهي عن الفحشاء والمنكر وترفع صاحبها إذا خشع فيها إلى الملأ الأعلى بروحه. وقوله «والصدقة برهان» أي: دليل على صدق صاحبها لأن المال محبب إلى النفس فلا ينفقه الإنسان إلا لأجل من هو أحب إليه منه، وقد يصلي الرجل ويصوم وتسهل عليه المواظبة على ذلك حتى إذا جاء إلى الصدقة شقت عليه، فأعطائها برهان على صدق معطيها.

وقوله «والصبر ضياء» أي: الصبر على أداء الطاعات وترك المحرمات يضيء للصابرين حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ويقودهم إلى النجاة.

وقوله «والقرآن حجة لك وعليك» إن اتبعته وأحللت حلاله وحرمت حرامه وجعلته إماما وحكما وإلا كان حجة عليك يسوقك إلى عذاب الله.

وقوله «كل الناس يغدو فبائع نفسه» أي: كل إنسان يغدو إلى عمله في الصباح فيبيع نفسه فيما يهواه ويحبه، فإذا كان يحب رضا الله باع نفسه من الله باستعمالها في طاعته فصار حرا، لا عبودية لنفسه ولا لهواه عليه ولا لأحد من الناس، وإن كان متبعاً لهواه ومطيعاً

لغيره في معصية الله فقد صار عبداً لما يحبه ولمن يطيعه.
 وقوله «فمعتقها» أي: محررها من الرق لغير الله ببيعها منه.
 وقوله «أو موبقها» أي: مهلكها ببيعها من غير الله.

الحديث التاسع عشر

عن أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلت بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». رواه مسلم

المفردات والمعني العام

مثل هذا الحديث يسمى الحديث القدسي وهو ما يرويه النبي ﷺ عن الله تعالى مما ليس بقرآن.

ومعني «حرمت الظلم على نفسي» أي: تنزهت عنه فلا أعذب أحداً إلا بذنب بعد قيام الحجة عليه ببعث الرسل وإنزال الكتب، ومن عمل عملاً صالحاً وفيت له بما وعده به من الثواب.
 «وجعلته بينكم محرماً» والظلم بين الناس هو اعتداء بعضهم على بعض بالأذى في النفس أو العرض أو المال وبمنع الحق المشروع وبالتسخير وفرض الفرائض غير المشروعة إلى غير ذلك.

«فلا تظالموا» أي: لا يظلم أحد منكم غيره.

قوله «كلكم ضال إلا من هديته الخ» يعني: أن الإنسان لا يستطيع أن يهتدي إلى الحق بدون إرشاد الله وتوفيقه، فاستهدوني - أطلبوا مني الهداية أهدكم.

«كلكم جائع إلا من أطعمته الخ» يعني: أن الله هو الذي يطعم الخلق كلهم ويرزقهم كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فالأرض لله ومنها يخرج ما يطعم الناس والمطر الذي هو سبب الأرزاق من الله هو الذي ينزله، فلا يجوز أن يطلب الطعام وسائر الأرزاق إلا من الله.

وقوله «كلكم عار إلا من كسوته ... الخ» الثياب إما أن تصنع من النبات أو من أصواف الحيوان وأوباره وأشعاره وما يخرج من دود القز من الحرير، كل ذلك يتوقف على خلق الله لذلك النبات والحيوان وتسخيره وإلهامه الناس صناعة الثياب، فمن السفاهة أن يطلب مثل هذه الأمور من غير الله أي من المخلوق الذي هو بنفسه في أشد الحاجة إلى رزق الله ﴿يُنَازِلُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

فاستكسوني: أي اطلبوا مني الكسوة واتخذوا لها الأسباب المشروعة.

وقوله «تخطئون بالليل والنهار ... الخ» تخطئون بفتح التاء والطاء من خطئ بمعنى أذنب فهو خاطئ أي مذنب. أي أن الإنسان لنقصه لا يستطيع أن ينفك عن الخطيئة صغيرها وكبيرها فإذا كان يحدث عقب كل ذنب استغفاراً فالله غفور رحيم. قال تعالى في سورة آل عمران في الثناء على عباده المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجَربى مِنْ خَتَمِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيبِ فِيهَا نِعَمٌ أَجْرٌ الْعَمَلِينَ﴾.

قوله «إنكم لن تبلغوا ضري ... الخ» معناه واضح.

وقوله «كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم» أي: بلغوا أقصى التقوى وهي امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، لم يصل من ذلك نفع إلى الله لأنه الغني المطلق، وكذلك معصيتهم لو بلغت أقصاها لم تضر الله شيئاً، فلا الطاعة تزيد في ملكه ولا المعصية تنقص منه.

قوله «في صعيد واحد ... الخ» أي: في مكان واحد وفي وقت واحد.

والمخيط: الإبرة. فخرائن الله لا ينقصها العطاء وإن بلغ ما بلغ. والإبرة إذا دخلت في ماء البحر ثم أخرجت منه لم ينقص ما يعلق بها من ماء البحر شيئاً.
 وقوله «أحصيها لكم» أي: أحفظها لا يضيع منها شيء ثم أجزيكم بها «فمن وجد خيراً» أي جزاء حسناً فليحمد الله على توفيقه ومن وجد غير ذلك وهو العذاب فلا يلومن إلا نفسه التي أوقعته في الذنوب التي كانت سبباً في عقابه.

الحديث العشرون

عن أبي ذر أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.
 قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون. إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر فكذلك لو وضعها في الحلال كان له أجر..»
 رواه مسلم.

المفردات والمعني العام

الدثور: جمع دثر وهو المال الكثير.

الأجور: جمع أجر وهو الثواب.

قوله «يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم» أي: ونحن لا نجد ما نتصدق به وقد ورد هكذا في رواية قال يعني النبي ﷺ «قد جعل الله لكم ما تصدقون».

إن بكل تسبيحة: وهي قول المرء سبحان الله.

وكل تكبيرة: وهي قول المرء الله أكبر.

وكل تحميدة: وهي قول المرء الحمد لله.

وكل تهليلة: وهي قول المرء لا إله إلا الله.

وفي بضع أحدكم صدقة: أي فرجه إذا استعمله في الحلال وصانه عن الحرام.

قوله آياتي أحدنا شهوته: أي بالجماع ويكون مع ذلك له أجر.

قوله رأيتم: أي أخبروني لو وضع شهوته في حرام بارتكاب المعصية بجماع ما لا يحل له.

«أكان عليه وزر» أي: إثم. والجواب هنا هو نعم قال النبي ﷺ «فكذلك إذا وضعها في حلال» يعني وصانها من الحرام فله أجر.

ومراد النبي ﷺ أن الصدقة غير منحصرة في المال فكل نفع ينفع الإنسان به غيره من إنسان أو حيوان يقصد بذلك وجه الله فهو صدقة. كالصلح بين الناس وتعليمهم وإزالة الأذى عن طريقهم كالشوكة والحجر مثلاً، وإعانتهم على ركوب أو نزول حتى البشاشة والكلام الطيب صدقة. وقد جاء الحديث صريحاً كل معروف صدقة أي كل إحسان صدقة ولو كانت الصدقة منحصرة في المال لكان الفقير محروماً ومغبوناً ولكن الله جعل ميدان الصدقة واسعاً لا يحرم منه أحد أراد أن يتصدق لأنه يستطيع أن يتصدق بما يقدر عليه من أنواع الصدقة وهي كثيرة لا يعجز عنها أحد. وقد جاء في الحديث أن من ترك الناس من شره وكفه عنهم فقد تصدق وسيأتي بعض أنواع الصدقة من غير المال في الحديث التالي.

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة» رواه البخاري ومسلم

المفردات والمعني العام

السلامي: العضو. قال أهل الحديث وعدد أعضاء الإنسان ثلثمائة وستون عضواً على كل عضو منها صدقة كل يوم.

قوله «تطلع فيه الشمس» تأكيد لوجوب هذه الصدقات في كل يوم على الإنسان. وهذه الصدقات أبوابها كثيرة كما تقدم وقد ذكر النبي ﷺ بعضها في هذا الحديث فقال: «تعدل بين اثنين» أي: تقضي بالحق بين اثنين متخاصمين أو تصلح بينهما فتقطع النزاع والشقاق

بينهما هذه صدقة عن عضو من أعضاء بدنك وإذا قلت كلمة طيبة تدخل بها النفع أو السرور على قلوب إخوانك فهي صدقة عن عضو آخر.

وكل خطوة تمشيها إلى المسجد لأداء الصلاة صدقة عن عضو من أعضاء جسمك. وإزالتك الأذى من شوك أو حجر أو وحل أو حفرة أو غيرها مما يؤذي الناس في طريقهم صدقة. فكيف إذا وفقك الله وعبدت طريقاً بأسره تعبيداً تاماً أو بنيت فيه جسراً، أو أمنت من اللصوص والسباع فحيثنذ تكون قد تصدقت بآلاف الصدقات. هذا هو الإسلام الحق الموجب للسعادة الذي به سعدا أسلافنا وبتركة شقيننا واستولي علينا أعداءنا فهل من رجوع إلى الإسلام الصحيح.

الحديث الثاني والعشرون

عن النواس بن سميان عن النبي ﷺ قال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». رواه مسلم وعن وابصة بن معبد قال أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر؟» قلت: نعم. قال: «استفت قلبك». «البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك». حديث حسن رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن.

المفردات والمعني العام

البر: كلمة جامعة للإحسان في طاعة الله وفي مخالطة الناس ومعاملتهم وقد فسر الله سبحانه وتعالى البر في سورة البقرة فذكر منه أنواعاً: أولها: الإيمان الكامل.

الثاني: أن يتصدق بما يحب من المال على جميع الناس وخصوصاً الأقارب واليتامى والمساكين وابن السبيل المسافرين العابرين والسائلين الذين يسألون الناس.

والثالث: إقامة الصلاة.

والرابع: إيتاء الزكاة الواجبة.

والخامس: الوفاء بالعهد سواء أعاهد مسلماً أو كافراً.

والسادس: الصبر على المصائب من فقر ومرض وعلى الجهاد في سبيل الله فهذه بعض أنواع البر ومن اتصف بها فلا بد أن يتصف بسائر أنواع البر. قال الشاعر العربي القديم يوصي ابنه:

بني إن البر شيء هين المنطق اللين والطعيم

أي إطعام الطعام ولين الكلام، وقوله ﷺ: «والإثم ما حاك في نفسك» أي اختلج في صدرك، وأخذ ضميرك الحي يؤنبك عليه إذا كنت فقيها تميز بين ما يرضي الله تعالى وما يسخطه وإلا وجب عليك مع ذلك أن تسأل أهل العلم والورع. وقد تقدم الحث على ترك الشبهات في حديث النعمان بن بشير وهذا الحديث في معناه. فإن الإنسان قد يميل إلى الرخص والتساهل فإذا كانت نفسه لوامة لم تقبل ذلك. ومن أمثلة ذلك قبوله الهدية بالنسبة إلى القاضي ومعلم الناس العلم لوجه الله ومن بيده مصالح الناس من الأمراء والولاة والمديرين، إذا جاءت الواحد منهم هدية من شخص له عنده حق يجب عليه أن يوصله إليه فإن نفسه إن كانت طيبة وكان فقيها تلومه على قبول الهدية خوفاً من أن تسلك في سلك الرشوة، ويكره أن يطلع عليه الناس وينتقدوه.

وقوله «استفت قلبك» أي: إذا كنت عالماً بالحلال والحرام والشبهات فاستفت قلبك، فإن اطمأن إلى أمر ولم ير فيه إثماً ولا شبهة فافعله وإلا فاتركه وإن أفتاك الناس أنه مباح وحلال فلا تركز إلى فتواهم.

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي نجيح العرباض بن سارية قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: «أوصيكم بتقوى الله وعز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة». رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

المفردات والمعني العام

الوعظ: تذكير الناس بعذاب الله ليجتنبوا معصيته وبنعمه ليرغبوا في طاعته.

ذرفت منها العيون: أي سالت دموعها وبكت.

ووجلت منها القلوب: أي خافت.

موعظة مودع: أي وصية راحل مفارق.

فأوصنا بوصية تنفعنا بعد أن تفارقنا إلى الدار الآخرة.

فأوصاهم بتقوى الله وقد تقدم معناها والسمع والطاعة لولاءة أمور المسلمين ونوابهم والمراد بالولاءة أئمة المسلمين ومن ينوب عنهم من الحكام وإن كان المؤمر عبدا لا يعرف له حسب ولا نسب فالنفوس الجائعة تكره حكم من كان كذلك وتنجح إلى الثورة والخروج عليه مفتخرة بأحسابها وأنسابها زاعمة أنها أولى بالحكم وفي ذلك وبال عظيم.

وقوله: «فإنه من يعيش منكم» من أعلام النبوة فقد أخبر النبي ﷺ أن بقاء الناس على الاستقامة لا يدوم بل سيظهر اختلاف كثير في الدين فإذا ظهر ذلك فلا منجي ولا عاصم إلا التمسك بسنة رسول الله ﷺ التي يحفظها ويعمل بها الخلفاء الراشدون الأربعة ومن سلك سبيلهم تمسكا شديدا فإن العض بالنواجذ وهي الأنياب كناية عن شدة التمسك.

«وإياكم ومحدثات الأمور» تحذير من البدع في الدين فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى أكمل الله الدين، فكل شيء يحدث فيه بعد ذلك فهو ضلال مبين.

الحديث الرابع والعشرون

عن معاذ بن جبل قال قلت: «يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا ﴿تَنجَايَ حُتُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيتَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ حَزَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ثم قال: «ألا أخبرك برأس

الأمر وعموده وذروة سنامه»، قلت: بلى يا رسول الله قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله». قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال: «كف عليك هذا»، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: «ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد الستهم». رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

المعنى العام

قال النووي في شرحه:

«قوله ﷺ: وذروة سنامه» أي أعلاه. قال الفيروز آبادي في «القاموس» ملاك الأمر قوامه الذي يملك به.

«وقوله ﷺ ثكلتك أمك» أي فقدتك ولم يقصد رسول الله حقيقة الدعاء بل جرى ذلك على عادة العرب في المخاطبات. وحصائد الستهم. جنباياتها على الناس بالوقوع في أعراضهم والمشي بالنميمة ونحو ذلك وجنبايات اللسان الغيبة والنميمة والكذب والبهتان وكلمة الكفر والسخرية والوعد الكاذب قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. تقدم الكلام عن أركان الإسلام المذكورة في هذا الحديث.

وقوله «الصوم جنة» أي وقاية تقي الناس من كل سوء ومن كل إثم إذا صان صيامه عن الزور والإثم واتبع فيه سنة رسول الله ﷺ.

وقوله «يطفىئ الخطيئة» أي تمحوا الذنوب التي بين العبد وبين ربه. أما حقوق الناس فلا تكفرها الصدقات.

«وصلاة الرجل في جوف الليل» هي أعظم النوافل وأصقلها على القلب وأذهبها لظلمته ودعاءها أسمع الدعاء وذلك وقت تنزل فيه الرحمت ويخلو القلب من هموم الدنيا وتتصل الروح بالملا الأعلى لذلك خصها النبي ﷺ بالذكر. وقوله ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ آية من سورة السجدة، وتتجافى عن المضاجع أي تحفوها وتفارقه وتباعد عن الفراش والنوم في وقت يخلو فيه الرقاد والنوم شوقاً إلى ذكر الله وتلذذاً بالتضرع إليه قال تعالى في سورة الذاريات في وصف المتقين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿وَبِالْآخِرَةِ

هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢١﴾. وبقية الآية ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾. وهذه الآية تدل على أن كل وصف ورد في نعيم الدار الآخرة إنما هو تقريبي فقط ولذلك قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي ثعلبة الخشني جرتوم بن ناشز عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها». حديث حسن رواه الدار قطني وغيره.

المفردات والمعني العام

تضييع الفرائض: يكون بعدم أداءها أصلاً أو بأدائها على وجه ناقص أو مخالف لسنة النبي ﷺ.

حدود الله: هي التي تفصل بين الحلال والحرام فقد جعل الله من كل ما تهواه الأنفس ويميل إليه من الحلال ما يغني المؤمن المتقي عن الحرام ومن يتعدي حدود الله فقد ظلم نفسه.

«وحرم أشياء فلا تنتهكوها» أي: لا تفعلوها.

«وسكت عن أشياء» لم يذكرها بتحريم ولا تحليل توسعة على عباده وما كان ربك نسياً. فهي مما أباحه لهم وهذا من الأدلة على أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يقوم الدليل على حرمتها.

ونهانا رسول الله ﷺ عن البحث عن هذه الأشياء لأن لا يفضي بنا البحث والقول بالرأي والقياس إلى تحريمها على أنفسنا فنضيق ما وسع الله ونقع فيما وقع فيه أهل الكتاب قبلنا من الآصار والأغلال.

الحديث السادس والعشرون

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس». فقال: «أزهد في الدنيا يحبك الله وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس». حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة.

المفردات والمعني العام

الزهد: التورع عن الشبهات وأن يكون المال في يد الإنسان لا في قلبه بمعنى أن نفسه ليست شحيحة به حريصة علي جمعه، ومنعه - بخيلة بأداء الصدقات الواجبة والمندوبة. فمن كان كذلك فهو زاهد في الدنيا وإن كانت عنده منها ملايين، ومن كان شحيحاً حريصاً بخيلاً جامعاً لها من حلال وحرام وشبهات فهو من المتكالبين عليها وإن كان فقيراً وقال الصوفية الزهد في الدنيا الاقتصار على الكفاية وترك ما زاد عليها وإن كان حلالاً طيباً وفيه نظر. وفي الحديث الصحيح «اللهم إني أسألك الهدي والتقي والغني والعفاف» فلو كان الغني ينافي الزهد لما طلبه النبي ﷺ وفي الحديث أيضاً في الصحيح في إحدى رواياته أن ناساً من أصحاب رسول الله جاءوا إليه فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور. يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال: «ألا أدلكم على عمل عملتموه سبقتهم من سواكم، تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» فانصرفوا من عنده ثم رجعوا إليه فقالوا: يا رسول الله إن أخواننا الأغنياء سمعوا بذلك ففعلوا مثله. فقال النبي ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، ومعلوم أنهم كانوا يتصدقون بما زاد عن كفايتهم فسمي النبي ﷺ ذلك فضلاً من الله فضل به الأغنياء على الفقراء ولو كان ينافي الزهد لما كان فضلاً وفي الحديث الصحيح أيضاً «اليد العليا خير من اليد السفلى» واليد العليا: هي المعطية ولا تكن معطية في الغالب إلا إذا كان عندها ما يزيد على كفايتها، فظهر أن الزيادة عن الكفاية من فضل الله ونعمته وليست منافية للزهد وأن الله يحب من كان غنياً شاكراً ينفق مما آتاه الله، وفي حديث ابن مسعود في البخاري «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس». «الماد بالحسد هنا الغبطة» «هو أن تتمنى مثلاً ما لغيرك من النعمة» لا يكون

الرجل مسلطاً على هلكة ماله إلا إذا كان عنده ما يزيد على الكفاية، وقد استحسّن النبي ﷺ غبطته على ذلك، ولو كان ذلك ينافي الزهد لما استحسّنه والأدلة على ما قلناه كثيرة.

وقوله «يحبك الله» محبة الله لعباده تستلزم رحمتهم والإنعام عليهم، «أما الزهد فيما في أيدي الناس» أي ترك الطمع والأخذ بما في أيديهم وعدم قبول هداياهم إلا مع الثواب عليها بالمكافئة أو لضرورة فهو من الحكم البالغة ومن جوامع الكلم. وأما سؤال الناس أموالهم بالتصريح أو بالتلويح فهو حرام إلا لضرورة فادحة. وقد مدح الله الفقراء المتعففين فقال في سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْتَسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَمَنِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْافًا﴾ وفي الحديث الصحيح: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مضغة لحم».

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب حزمة فيبيعهها فيكف الله بها وجهه عن النار خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». وهذا الحديث من أركان الدين، قال بعضهم شعراً:

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعينك وأعملن بنية

قوله: اتق الشبهات، إشارة إلى حديث النعمان بن بشير المتقدم. وقوله وازهد إشارة إلى هذا الحديث.

وقوله: ودع ما ليس يعينك، إشارة إلى حديث «من حسن المرء تركه ما لا يعنيه» وقوله: واعمل بنية، إشارة إلى الحديث الأول من هذه الأحاديث «إنما الأعمال بالنيات». ومعلوم أن الناس يحبون من يتعفف عما في أيديهم ويستثقلون ويكرهون من يتعرض لما في أيديهم، ومن الحكم (استغن عمن شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره).

الحديث السابع والعشرون

عن أبي سعيد بن مالك بن سنان الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار». حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسنداً. ورواه مالك في الموطأ ومرسلاً. عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي ﷺ فاسقط سعيد وله طرق يقوي بعضها بعضاً.

المفردات والمعني العام

قوله «لا ضرر» أي لا يجوز لمسلم أن يضر مسلماً ولا معاهداً ولا مصالحاً إذا كان قادراً عليه والمضروب عاجز. وقوله «ولا ضرار» أي لا يجوز له أن يضر أحداً من ذكر، والمضروب قادر وفاعل يقابل الضر بالضر والعدوان بالعدوان، فالضرار فعال وهو مصدر فاعل كالمفاعلة إذا جرى على بابه لا يقع إلا من اثنين، ولا يدخل في هذا الدفاع عن النفس عند الحاجة إليه إذا لم يوجد حاكم يأخذ للمظلوم حقه من الظالم. قال تعالى في سورة النساء: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ آعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خُمٌ فَلْيَضْحَكُوا﴾.

وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فالإسلام دين واقعي لا يأمر الناس بالمحال ولا يقول لهم من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الآخر. ومن طلب منك رداءك فأعطه الإزار. ومن أراد أن تمشي معه ميلاً فأمش معه ميلين، إذ لو فعل الناس ذلك لما أمر بمعروف ولا نهى عن منكر ولا قام حق ولا سقط باطل ولصارت الدولة والصولة والسلطان للصوص الفتاكين المجرمين وذلك خلاف الفطرة، وخلاف العقل.

الحديث الثامن والعشرون

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعطي الناس بدهواهم لادعي رجال أموال قوم ودماءهم. لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر». حديث حسن. رواه البيهقي وغيره هكذا وبعضه في الصحيحين.

المفردات والمعني العام

المدعي: هو المطالب بحق يدعيه على غيره.
والبينة: الدليل الذي يثبت به ما ادعاه من شهود اثنين أو أكثر من أهل العدالة أو علامة ظاهرة على المدعي عليه تثبت بمثلها الدعوى.
هذا الحديث أصل عظيم في فصل الخصومات والقضاء بين المتخاصمين المتحاكمين،

فقاله «البينة على المدعي» أمر أجمع عليه العقلاء لأن الأصل براءة الذمة فمن ادعى خلاف الأصل فعليه إقامة الدليل على دعواه قال الشاعر:

والدعاوي ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدياء

وأما قوله «واليمين على من أنكر» فقد اتفق المسلمون على العمل به، والمحاكم الأوروبية لا تعتبر اليمين عند الإنكار واجبة ومع ذلك تلزم المدعي عليه أن يدافع عن نفسه وتكلفه غرامات بتعطيله عن شغله وإجباره على الإتيان إلى المحكمة مراراً وتكراراً، أو غرامات يقدمها لمن يجادل عنه من المحامين، وقد اقتبس منهم أهل البلاد الإسلامية هذه المحاكمة الإجرامية التي تنكرها العدالة والطبع السليم والمروءة والإنسانية. والله در الكاتب العبقرى (جوناثان سويفت) في رده واستهجانه التحاكم إلى المحاكم البريطانية في زمانه في كتابه رحلات (كوليفر) فقد أجاد في ذلك كل الإجادة واليمين التي أوجبها الإسلام أمر مهم جداً في استخراج الحقوق فإن كل مؤمن بشيء مقدس له لا يسهل عليه أن يحلف به كاذباً، فاليمين إما أن تنفع فيخاف المنكر عاقبتها ويعترف بالحق وإما أن لا تضر فإبراء ذمته مع يمين، خير من إبراء ذمته بلا شيء، وقد رأيناهم يستعملون اليمين في التعهدات كتولي الملك أو الرئاسة أو عمل من الأعمال المهمة وليت شعري إذا كانت اليمين لا فائدة فيها بالنسبة إلى المنكر حقاً من الحقوق فكيف يرجي أن تكون فيها فائدة بالنسبة إلى المتعهد.

وقوله «لو يعطي الناس بدعواهم ... الخ» دليل على أن الأصل كما قلنا براءة الذمة، فمن ادعى على إنسان أنه أخذ ماله أو سفك دمه أو دم قريبه لم تسمع دعواه، إلا إذا كان المدعي عليه معروفاً بالسرقة أو الغصب أو رأيت عليه علامات تدل على ذلك فحينئذ يحسبه الحاكم، إلى أن يستقصي خبره وقد أجاز بعض علماء الشرع في مثل هذه الحالة محاولة إقراره بالضرب والتهديد والاحتياط.

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي سعيد الخدري. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». رواه مسلم

المعني العام

المنكر: هو ما حرم الله فعله أو قوله. والبدعة داخله فيه لأنها أشد من المعاصي وأعظم ضرراً كما حققه الشاطبي في كتاب الاعتصام.

والمعروف: هو الواجب الذي فرضه الله على عباده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ركن من أركان الإسلام ولا يصلح دين ولا دنيا بدونه أبداً وكل جماعة من الناس يجمعها بلد تسكن فيه إذا لم تقم بهذا الفرض فإن الشقاء والوبال والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة والخسران في العاجل والآجل هو مصيرها المحتم وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً كما في صحيح البخاري وقال ما معناه: «كمثل قوم كانوا في سفينة فاقترعوا عليها فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فقال الذين في أسفلها لو ثقبنا ثقباً واستقيناً منه الماء لم نحتج إلى الصعود إلى أعلى السفينة لسقي الماء فإن ضرب الذين في أعلاها على أيديهم نجوا وإن تركوهم هلكوا جميعاً» لذلك أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعله فرضاً على كل مسلم إن كان قادراً أن يغير المنكر بيده وجب عليه تغييره باليد ولم يكفه أن يغيره باللسان، فالرئيس الذي يرعى العمال والولاة الذين تحت يده وتصرفه يظلمون الناس ويأخذون منهم الرشوة ويغلظون عليهم الحجاب ويخشنون لهم القول ويقدمون من يمت إليهم بصلة ويؤخرون غيره لا يكفيه أن يكره ذلك بقلبه ولا أن يذمه بلسانه بل يجب عليه أن يعزلهم ويعاقبهم أشد العقاب ويأخذ منهم حقوق الناس ويصلح كل ما أفسدوه وإلا كان مشاركاً لهم في الإثم. فإذا عجز عن التغيير باليد وجب عليه التغيير باللسان، بأن يتكلم مع أصحاب المنكر بكل كلام يظن أنه يردعهم ويردهم إلى الصواب من وعظ ونصح وتهديد وغير ذلك من أنواع القول فإن عجز عن القول وجب عليه أن يكره ذلك المنكر بقلبه وأن يتألم له وينوي تغييره باللسان واليد متى قدر على ذلك، فإذا علم الله صدقه فعسى أن يعفو عنه. ويستحب للعاجز عن الدرجة العليا من التغيير أن يخاطر بنفسه ويفعل تلك الدرجة ويصبر على ما أصابه، قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ غَزَمِ الْأُمُورِ﴾.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». رواه الترمذي فقول كلمة الحق عند السلطان الجائر مخاطرة بالنفس وقد جعل النبي ﷺ قوله

أفضل الجهاد، أفضل من القتال بالسلاح. فإن ضعف عن المخاطرة بالنفس وجب عليه أن يتأسف على ذلك ويرجو العفو من الله. وفي الحديث الذي رواه أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال في حديث طويل إن علماء بني إسرائيل كان الواحد منهم يلقي صاحب المنكر فيقول له يا فلان اتق الله ودع ما أنت عليه ثم يلقاه في الغد وهو باق على ما كان عليه فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وجليسه وعند ذلك ضرب الله بعضهم ببعض ولعنهم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتضربن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقرسنه على الحق قسراً أو ليلعنكم الله كما لعنهم. ثم تلي رسول الله ﷺ قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ هذا معني الحديث وأكثره بلفظه.

وقوله «وذلك أضعف الإيمان» ليس معناه أن العاجز عن التغيير باليد والتغيير باللسان إذا أدى واجبه وهو التغيير بالقلب أن إيمانه ضعيف وإنما المراد أن ثمرة إيمانه قليلة وأنه لا يكون إيمان بدون تغيير المنكر أبداً.

الحديث الثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». رواه مسلم

المفردات والمعني العام

لقد اشتمل هذا الحديث على نصائح عظيمة وحكم بالغة وأحكام جلييلة من سيد الناصحين صلوات الله عليه.

وقوله «لا تحاسدوا»: الحسد أن يتمني الإنسان زوال نعمة غيره، هذا هو المذموم. والتنجش: أن يزيد الإنسان في ثمة سلعة لا ليشتريها بل ليغريها على غيره.

والتباغض: أن يبغض المسلم أخاه المسلم.

والتدابير: التقاطع والهجر، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهم الذي يبدأ بالسلام» وأصل التدابير في اللغة أن يري الإنسان شخصا فيعرض عنه ويولييه ظهره. ولا يبيع بعضكم على بيع بعض: إذا رأي غيره يبيع شيئا لا يحل له أن يعرض سلعته على المشتري حتى ينصرف عن ذلك الذي كان يتبايع معه بل لا يحل له أن يسوم على سومه إذا رأي إنساناً يشتري شيئا من شخص آخر لم يحز له أن يسأل عن ثمن ذلك الشيء لئلا يظن البائع أنه يريد أن يزاحم ذلك المشتري فيغلبه عليه وكذلك لا يجوز له أن يخطب على خطبة أخيه إذا رأي رجلا يخطب امرأة لم يحز له أن يخطبها ما دام للخاطب الأول أمل في الزواج بها وهذا مقتضى الأخوة الإسلامية. وكذلك لا يجوز له أن يفعل ذلك مع غير المسلمين من المعاهدين والمصالحين.

وكونوا عباد الله إخوانا: وحقوق الأخوة توجب الإيثار على النفس لا الاستئثار.

المسلم أخو المسلم: فلا يتصور أن يظلم الإنسان أخاه.

ولا يخذله: أي لا يسلمه إلى أعدائه إذا رأي أحدا يعتدي عليه وجب عليه نصره وإذا ظلم أخوه المسلم الناس وجب عليه أن ينصره على نفسه بأن يمنعه من الظلم. قال النبي ﷺ «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». قيل يا رسول الله كيف ننصره إذا كان ظالما قال: «تمنعه من الظلم».

ولا يكذبه: أي لا يخبره إلا بالصدق ولا يغشه.

ولا يحقره: أي لا يري نفسه أفضل منه فيحقره بقلبه أو بلسانه أو بمعاملته بالإهانة.

التقوى ههنا ويشير إلى صدره: يعني أن التقوى في القلب وقد تقدم «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب» قال الشاعر:

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

وقوله «بحسب امرئ من الشر»: أي يكفي المسلم من الشر الذي يفضي به إلى أشد العذاب أن يحتقر أخاه المسلم فإذا فعل ذلك فلم يترك من الشر شيئا.

«كل المسلم على المسلم حرام» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع في خطبته: «فإن دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت، قالوا اللهم نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب» وكان ذلك يوم النحر عاشر ذي الحجة وهو يوم الحج الأكبر، وكان الشهر ذا الحجة والبلد منى بقرب مكة فإذا كان دم المسلم وماله وعرضه في الحرمه والقدس كالبيت الحرام في الشهر الحرام. من انتقص مسلما قطرة من دمه أو فلسا من ماله أو طعن في عرضه كمن أهان البيت الحرام. علم بهذا سبب ما يعانيه المسلمون من عذاب الله بتسليط ذئاب الصهيونية والاستعمار عليهم وإذلالهم وإهانتهم

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». رواه مسلم بهذا اللفظ

المفردات والمعني العام

الكربة: الضيق والغم، وتنفيسها تفريجها وكشفها عن المصاب بها كمن كان عليه دين الح الغرماء في طلبه فكشفه غمته القرض أو العطاء وكمن كان في سجن دخله بظلم فكشف كربته إخراج منه ومن كان في فاقة وضيق من العيش فتفريج كربته الإحسان إليه. قوله «ومن يسر على معسر»: للتيسير على المعسر صور كثيرة منها المدين الذي لا يحل عليه أداء الدين وليس عنده ما يقضي به دينه فينظر ويؤخر إلى وقت يسره أو يسامح فيه كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فمن كان محبا للخير والإحسان فقد أحسن إلى نفسه لأن الله وعده أن ييسر عليه في الدنيا وفي الآخرة.

وأما الستر فإن ارتكب المسلم فاحشة أو عمل عملاً يخزيه أمام الناس أو يخجله فإن كان في ستره ضياع حق مسلم آخر أو معاهد لم يجوز له أن يستره وإن كان الحق أطلع عليه، وكان ذلك الأمور التي لا حق فيها لإنسان ينبغي له أن يستره ليستره الله.

قال الله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُخْفُونَ أَنْ تُشَاعِرَ الْفَجِشَةُ فِي النَّبِيِّاتِ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

قوله: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» أكثر الناس في هذا الزمان يرونها ما دام العبد في عون أخيه وهو غلط وفيه ترغيب عظيم في إعانة المسلمين لأن كل إنسان يحب أن يكون الله في عونه وقد وعده بذلك إذا أعان إخوانه.

وقوله «ومن سلك طريقاً» فيه الحث على السير في طلب العلم إلى مجالسه في القرب والبعيد ولو بأرض الصين، وقد سافر جابر بن عبد الله لأجل السؤال عن حديث واحد مسيرة شهر، وأخبرنا الله في القرآن أن موسى سافر إلى الخضر وطلب منه أن يتبعه ليعلمه مما علمه الله علماً، فالمسلم الصادق يطلب العلم من المهد إلى اللحد ويسلك في سبيله كل طريق بعيداً كان أم قريباً ولا يصد عنه فقر ولا غنى، ومن سوء الحظ أن أكثر المسلمين في هذا الزمان أزهد الناس في العلم حتى طلاب المدارس الذي يريدون أن يعيشوا بالعلم يكرهون التعلم أشد الكراهية والأمم الراقية في أوربا وأمريكا بعكس ذلك يحبون العلم للعلم صبيانهم وشيوخهم وذكورهم وإناثهم فإذا كانوا أحب منا للعلم وأكثر تمسكاً بالأخلاق التي دل عليها هذا الحديث وغيره فكيف نطمح أن نساوهم في القوة حتى نتخلص من ظلمهم، هذا محال، ومن طلب المحال باء بالخيبة. وقوله «سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» أي يسر الله له السعادة العاجلة والآجلة.

وقوله «ما اجتمع قوم.... الخ» فيه فضل عظيم وفوز كبير للمجتمعين في المسجد على تلاوة القرآن ومدارسته يتدبرونه ويتعلمون معناه بقصد العمل به واتباعه بتحليل حاله وتحريم حرامه والتأديب بأدبه ويكون اجتماعهم وتلاوتهم ومدارستهم كما كان النبي ﷺ وأصحابه يفعلون لا يخالفونهم لا في قليل ولا في كثير وحينئذ يؤتيهم الله ما وعدهم به نبيه وهو أربعة أمور أجملها وأعظمها نزول السكينة، أي سكون القلب واطمئنانه وثقته بالله واعتزازه به فإذا نزلت السكينة هذه على قوم كانوا المنصورين الغالبين الأعلين كما قال

تعالى في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَنَانُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهُدِ ﴾. وحينئذ لو اجتمع عليهم أهل الأرض كلهم بجميع أسلحتهم القديم منها والحديث والذي يأتي به المستقبل لولوا الأدبار وانقلبوا صاغرين فكيف تقف في طريقهم وتجللهم بثوب من الخزي والعار شرذمة قليلة حقيرة من أبناء صهيون لا تطمع هذه الشرذمة أن تغتصب أرضا غير أرضهم ولا أن تحارب قوما غيرهم ولا أن تتحدي وتخيف أمة سواهم.

الأمر الثاني: أن تغشاهم رحمة الله ومن غشيته رحمة الله فقد فاز بنعمة وفضل من الله وزال شقاؤه وأشرق ضياؤه وتحقق رجاؤه وسعدت أرضه وسماؤه وصارت يده العليا وقوله الفصل.

والأمر الثالث: أن تحفهم الملائكة، ومن حفته الملائكة لا يعتريه ذل، ولا هوان، ولا تلدد، ولا حيرة في أمره بل هو على نور من ربه قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَنِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرُغَبٌ ﴿١﴾ فَمَنْ كَانَتِ الْمَلَأَةُ مَعَهُ أَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِهِ، وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ. وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأُنْزِلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾.

الأمر الرابع: أن يذكرهم الله فيمن عنده فيكون الثناء عليهم في السماء والثناء عليهم في الأرض يصلي عليهم أهل السماء ويصلي عليهم أهل الأرض. وهذا هو القرآن يقرأ في بلاد المسلمين وفي بلاد غير المسلمين أكثر مما يقرأ في زمان السلف الأولين ولا سكينه ولا رحمة ولا ملائكة ولا ثناء لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض لأن القرآن لا يقرأ للغرض الذي أنزل من أجله ولا على الكيفية التي كان يقرأ عليها والتي يريد بها الله تعالى بل لا يقرأ بالقلوب فلا إيمان ولا أعمال وإنما يقرأ بالحناجر واللسان، ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. وقوله «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» من أعلام النبوة وهو حجة على المتشيعين بالأنساب الشاخين بأنوفهم في السماء وهم كما قيل:

«أنف في السماء واست في الماء» كلما نزلت عليهم سحابة جديدة من غضب الله وخزيه رفعوا أصواتهم يتغنون بالأحساب والأنساب فيزيدهم الله غضبا وخزيا فالناس تسرع بها

أعمالها إلى العلى والمجد والسؤدد ويسرع بهم ترفعهم بالأنساب وانتفاخهم بها إلى الحضيض الأسفل، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه». رواه البخاري

المعنى العام

هذا الحديث القدسي يبين لنا علامات أولياء الله لنعرفهم بها فمن لم توجد فيه فليس هو من أولياء الله، وقوله: «من عاد لي وليا» أي مؤمنا حقا لأن كل مؤمن ولي الله قال تعالى في سورة البقرة: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» فمن آذى المؤمنين الصادقين أعلمه الله بالحرب ومن حاربه الله هلك والفرائض ما فرضه الله علي الناس من توحيد وإيمان واتباع الرسول وصلاة وزكاة وحج وصوم وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإقامة عدل ونصر مظلوم، والنوافل ما لم يفرضه الله من ذلك بل ترك فيه الاختيار للإنسان كالصلوات الزائدة على الصلوات الخمس المفروضة في كل يوم والصيام الزائد على رمضان وعلى النذر وصيام الكفارات والصدقة غير الواجبة والحج بعد المرة الأولى فهذه العبادات تقرب من الله وتجعل ذكره في القلب واللسان فتعلو منزلته وتزكو نفسه وتلتحق بالملا الأعلى فتكون أعماله وأقواله وأفكاره في الخير ورضوان الله فلا يمشي إلا في الخير والطاعة ولا يري ولا يسمع إلا البر والمعروف وإذا سأل الله استجاب دعاؤه وقضي حاجته وإذا استعاذه أي طلب منه أن يعصمه ويحفظه أعاده وكذلك كل المؤمنون في الزمان الأول حين كانوا يطيعون الله ورسوله ويعملون الصالحات، ومحبة الله للإنسان كما تقدم تستلزم أن يتولاه الله بحمايته ورعايته ولطفه وبره، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما.

المعنى العام

قوله: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ» يعني أن ما فعله المرء خطأ ولم يقصده فلا إثم عليه وكذلك ما نسيه من الواجبات لا يؤاخذ عليه وإذا أكره على قول من أقوال الكفر فقال مكرهاً لم يؤاخذ عليه إلا أنه إذا قتل إنساناً خطأ وجبت عليه الكفارة وعلى عاقلته (أي أقاربه من جهة أبيه) الدية، والكفارة أن يصوم شهرين متتابعين وإذا أكره على قتل مسلم أو معاهد لا يجوز له أن يقتله وكذلك إذا أكره على ضربه أو هتك عرضه لم يجز له ذلك وفي معنى ذلك قال النبي ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها». رواه البخاري

الحديث الرابع والثلاثون

عن ابن عمر قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك. رواه البخاري

المفردات

المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

والعابر: المار.

المعنى العام

هذه وصية عظيمة من النبي ﷺ لعبد الله بن عمر وضع النبي ﷺ يده على منكب عبد الله بن عمر تنبيهاً له ليجمع ذهنه ويتلقى هذه الوصية بما تستحق من الاهتمام. وقوله «كن في الدنيا كأنك غريب» أي لا تركز إليها وتغتر بها حتى توقعك في الغفلة عن الله ثم معصيته.

«أو عابر سبيل»: أي مار في طريق له غاية ينتهي إليها وهي الدار الآخرة. ولا يدل هذا الحديث على إطراح الدنيا بمخادفها والانقطاع إلى العبادة وحدها وإهمال الأهل والولد وعدم إعطاء النفس حقها من المباح وقد تقدم الكلام على مثل هذا فلا بد للمؤمن المتبع المهتدي بهدي النبي ﷺ أن يعطي كل ذي حقاً حقه وفي صحيح البخاري «أن سلمان الفارسي زار أبا الدرداء، وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما لأن سلمان مهاجر وأبو الدرداء أنصاري حين آخا بين المهاجرين والأنصار فرأى سلمان أم الدرداء غير متزينة كأنها حزينة أو حادة على ميت فسألها عن ذلك فقالت له أخوك أبو الدرداء ليس له أرب في الدنيا فلما جاء أبو الدرداء صنع له طعاماً فقربه له ولم يأكل معه فقال سلمان كل فقل إنني صائم يعني تطوعاً. قال كل فأكل معه فلما جاء الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم الليل مصلياً فناداه سلمان ثم فنام حتى قرب طلوع الفجر فناداه سلمان قم الآن وقال له إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه ثم توضأ وانطلقا إلى المسجد فصليا خلف رسول الله فقص أبو الدرداء علي النبي ما جري بينه وبين سلمان فقال رسول الله: «صدق سلمان إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً الخ»

قوله «وكان ابن عمر يقول» هذا الجزء من الحديث موقوف وما قبله مرفوع.
قوله «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» يعني تب إلى الله من ذنوبك واستقم في أعمالك كأنك على يقين أنك تموت في ليلتك لأن الموت آت ولا تدري متى يأتيك ومن الحزم أن تكون مستعداً له في كل وقت كما كان «غاندي» مستعداً للسجن في كل وقت لا يغير ثيابه التي يلبسها في السجن ولا فراشه ولا طعامه فكأنه يقول للبريطانيين الذين كانوا هنالك مستعمرين إن داخل السجن وخارجه عندي سواء فلا تظنوا أن السجن سيخضعني لكم.
وقوله «وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» مثله.

وقوله «وخذ من صحتك لمرضك» أي: اجتهد في طاعة الله وعبادته وقت صحتك وشبابك قبل أن يجيئك مرض أو هرم يمنحك من كثير من الطاعات، فاغتنم زمان الصحة والشباب واملاؤه بالعمل الصالح فإنه ضيف عما قريب سيرحل.

وقوله «ومن حياتك لموتك» يعني اغتنم فرصة الحياة التي هي وقت العمل فإن الحياة ظل

زائل فلا تضيعها في اللهو واللعب بل املأها بأعمال البر التي تجد ثمرتها حتى ينقطع عملك بعد الموت وفي الحديث الصحيح «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، وعلم ينتفع به وولد يستغفر له». والصدقة الجارية هي الوقف الذي يبقى ريعه ينفق على المستحقين بعد موته، والحياة موسم الحرث والزرع فإذا لم يزرع الإنسان شيئاً لم يحصد شيئاً وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حصادا ندمت على التفريط في زمن البذر

قال النووي في شرحه وقد قيل في الزهد في الدنيا:

أنبني بناء الخالدين وإنما مقامك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كان فيها يعتريه رحيل

ولما زرت المغرب في الصيف الماضي من هذه السنة سنة ١٣٧٧ بتاريخ الإسلام والعرب ورأيت ما شاده الفرنسيون من المباني الشائخة الأنيقة والشوارع المبلطة النظيفة والحدائق ذات البهجة والطرق المعبدة التي تشق السهول والجبال، وقد خرجوا من ذلك وتركوه لأهله ينعمون به وانقلبوا إلى أهلهم خائبين، أو بقوا في المغرب أذلة صاغرين، أنشدت البيت الأول من هذين البيتين.

وانشد النووي أيضا في التزهيد في الدنيا:

سجنت بها وأنت لها محب فكيف تحب ما فيه سجنتا
فلا تلهو بدار أنت فيها تفارق منك يوما ما لهوتا
وتطعمك الطعام وعن قريب ستطعم منك ما منها طعمتا

وانشد أبو القاسم الحريري في المقامات وهو من الشعر الذي له قافيتان:

يا طالب الدنيا الدنية إنها شرك الردي وقرارة الأقدار
دار متى أضحكت في يومها أبكت غدا تبأ لها من دار
غاراتها لا تنقضي وأسيرها لا يفندي بنفائس الأقدار

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح

المعنى العام

رأيت ما شرح به النووي رحمه الله هذا الحديث في غاية الحسن والإحكام ومطابق لكل زمان ومكان، ولو كان شرحه مطابقاً لما يحتاج إليه طلبة هذا الزمان كهذا الشرح لما عدلت عنه إلى شرح من عندي قال النووي:

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» يعني أن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة ويخالف هواه ويتبع ما جاء به ﷺ. وهذا نظير قوله تعالى في سورة الأحزاب: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» فليس لأحد مع الله عز وجل ورسوله ﷺ أمر ولا هوى وعن إبراهيم بن محمد الكوفي قال: رأيت الشافعي بمكة يفتي الناس ورأيت إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل حاضرين فقال أحمد لإسحاق تعالى حتى أريك رجلاً لم تر عينك مثله فقال له إسحاق لم تر عيناي مثله قال نعم فجاء فوقفه على الشافعي فذكر القصة إلى أن قال ثم تقدم إسحاق إلى مجلس الشافعي فسأله عن كراء بيوت مكة فقال الشافعي هذا عندنا جائز. قال رسول الله ﷺ: فهل ترك لنا عقيل من دار، فقال إسحاق: أخبرنا يزيد بن هارون عن هشام عن الحسن أنه لم يكن يري ذلك، وعطاء وطاووس لم يكونا يريان ذلك فقال له الشافعي أنت التي تزعم أهل خراسان أنك فقيهمهم؟ قال إسحاق كذا يزعمون. قال الشافعي ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك فكنت أمر بعرك أذنيه، أنا أقول قال رسول الله ﷺ وأنت تقول قال عطاء وطاووس والحسن وإبراهيم هؤلاء لا يرون ذلك. وهل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة، ثم قال الشافعي قال الله تعالى في سورة الحشر: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» أفتنسب الديار إلى مالكين أم غير مالكين؟ قال إسحاق إلى مالكين قال الشافعي فقول الله تعالى أصدق الأقاويل. وقد قال رسول الله ﷺ «من دخل دار أبي سفيان فهو

«أمن» وقد اشترى عمر بن الخطاب دار بمكة واتخذها سجنًا. وذكر الشافعي جماعات من أصحاب رسول الله ﷺ فقال له إسحاق: سواء العاكف فيه والباد. فقال له الشافعي فالمراد به المسجد خاصة وهو الذي حول الكعبة، ولو كان كما تزعم لكان لا يجوز لأحد أن ينشد في دور مكة ضالة ولا تحبس فيها البدن ولا تلقي الأرواث ولكن هذا في المسجد خاصة فسكت إسحاق ولم يتكلم فسكت الشافعي عنه.

وأقول تعليقاً على كلام النووي المتوفي سنة ٦٧٦ هـ أي بعد وفاة ابن مالك صاحب الألفية بأربع سنين. كلام هذا الإمام صريح في رد التقليد وكل من حقق تاريخ الفكر الإسلامي وكان من طلاب البرهان، ولم يكن حاطب ليل ولا إمعة، يعلم علم اليقين أن المفتي والقاضي لا يجوز لهما الفتوى والقضاء بالتقليد بل يجب عليهما الاجتهاد وهذا حكم الله المحكم الذي لم ينسخ ولن ينسخ وسواء في ذلك أهل القرن الأول والرابع وأهل القرن الخامس وما بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والتقليد في دين الله حرام ولا يجوز إلا للجاهل، والمقلد ليس من أهل العلم في شيء، والله در ابن المعتز إذ يقول:

عرف العلماء فضلك بالعلم وقال الجاهل بالتقليد

وقال الإمام ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله من قصيدة له في ذم التقليد:

لا فرق بين مقلد وبهيمه	تنقاد بين جنادل ودعائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة	المبعوث بالدين الخفيف الطاهر
وإذا الخلاف أني فدونك فاجتهد	ومع الدليل فمل بفهم حاضر
وقس الفروع على الأصول ولا تنس	فرصا بفرع كالجهول الحائر

وقال الأبي في شرح صحيح مسلم وهو من علماء القرن الثامن الهجري في شرح الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ «إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد» قال ما معناه إن الاجتهاد في زماننا أيسر منه في زمان مالك، فلو أطلع الإنسان على ما جمعه عبد الحق الأشبيلي في الأحكام الكبرى في مسألة من المسائل الفقهية لاجتمع له من الأدلة ما لا يكاد يحضر مالكا. انتهى كلامه. وألف عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة تسعمائة واثنى عشر تقريبا ألف كتابا سماه «الرد على من

أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرد» وقد ذكر المجتهدين من زمان النبي ﷺ إلى زمانه ونقل كلامهم في رد التقليد قرنا بعد قرن وطبقة بعد طبقة إلى زمانه وهذا الكتاب قد طبع في الجزائر منذ زمان طويل. وألف صالح بن محمد الفلاني المغربي وكان يعيش على ما أذكر إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري كتابا سماه «إيقاظ همم أولى الإبصار في الاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار. وترك ما ألفوه من التقليد في جميع الأقطار». ولو أردت أن أذكر ما أحفظه من كلام علماء الإسلام في وجوب الاجتهاد ورد التقليد لطال الكلام. ومن العجب ما رواه لنا الدكتور صفاء الخلوصي من أخبار المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في مدينة لاهور في باكستان في هذا الشهر وهو أن جماعة من الخطباء منهم الدكتور عبد العزيز الدوري على ما أذكر، وهو من كبار المثقفين والمتخصصين في التاريخ الإسلامي.

قال هؤلاء أن الاجتهاد بعد ما نضج وكملت مباحثه أغلق بابه في آخر القرن الرابع الهجري وأنا لا أقول للدكتور الدوري كما قال الشافعي لإسحاق، ولكن أتأسف على عدم تحقيقه هذه المسألة التاريخية المهمة. بيا أن الدكتور الخلوصي روي لنا أيضا في حديثه الذي لقيه في قاعة دار المعلمين العالية، أن جماعة آخرين من الخطباء ردوا القول بإغلاق باب الاجتهاد وقضوا عليه القضاء التام. ولكن ما رواه من أقوالهم في الرد هو شيء ضئيل لا يسمن ولا يغني من جوع.

الحديث السادس والثلاثون

عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر». أخرجه البخاري ومسلم وأخرجاه أيضا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان». وفي رواية مسلم «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

المفردات

المنافق الخالص: هو الذي يخفي الكفر ويظهر الإسلام وقد يجتمع في الشخص نفاق وإيمان وهو النفاق الجزئي.
وقوله فجر: أي كذب وجحد الحق.

المعنى العام

اعلم أن هذا الحديث مشتمل بروايته على خمس خصال كل واحدة منهن جزء من النفاق وعلامة عليه فإذا اجتمعت هذه الخلال كلها في شخص وصارت عادة له لا يتورع عنها ولا يتوقف في ارتكابها ولا يؤنبه ضميره ولا يمنعه دينه ومروءته، فهذا ليس بخارجاً عن دائرة الإسلام فقط بل هو خارج عن دائرة الإنسانية وهو شر من الدواب، الذين قال الله فيهم في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ.

الخصلة الأولى: الكذب

وهو شر الخصال ولذلك بني عليه النفاق وقد أجمع العقلاء على أنه من أعظم الرذائل إلا إذا كان في الإصلاح بين الناس أو كان من خدع الحرب حرب العدو الذي ليس بينه وبينك عهد ولا صلح ولا هدنة وقد أعلنت عليه الحرب ونبذت إليه على سواء قال الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَمَّا خِفَافٌ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَاتَّبِعْهُمُ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَلَّفْتُمْ الْخَافِينَ﴾. والكذب لا يجتمع مع الإيمان، قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الْآيِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِحَيْثُ قَالَ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

الخصلة الثانية: خلف الوعد

وهو على قسمين قسم يعد فيه الإنسان وهو عازم على الوفاء ثم يعرض له مانع فهذا لا حرج فيه وقسم يعد فيه وهو عازم على الإخلاف أو يكون عازماً على الوفاء ثم يتركه بلا عذر. وإذا وعد بمعصية لا يجوز له أن يفني بها أبداً.

الخصلة الثالثة: الفجور عند المخاصمة

يعلم

وهو جحد الحق والجدال بالباطل وهو يعمل أنه باطل ليغبط به الحق ويضيعه بضروب من زخرف القول ولبي الكلام ، ولا يردعه خوف من الله ولا حياء من نفسه ولا من الناس.

الخصلة الرابعة: نقض العهد

وهو في معني إخلاف الوعد إلا أنه أشد لأنه إعطاء العهد توكيد للوعد. قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُشْكِرُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَأَتَمَّيْتُمْ ثَمَّاءَ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا سَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْعَذَابِ أَلِيمٌ ۖ ﴾.

الخصلة الخامسة: خيانة الأمانة

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ ﴾.

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْسِيتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ ﴾ وقال النبي ﷺ «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وعن محمد بن كعب القرظي أنه استنبط معني هذا الحديث من القرآن.

ففي الكذب قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنِفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنِفِقِينَ لَكَذِبُونَ ۚ ﴾.

وفي نقض العهد قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ تَبَاً ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ خَلَوْا بِمَعَزَاتِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۚ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۚ ﴾.

وفي خيانة الأمانة قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۚ ﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُتَنِفِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۚ ﴾.

الغاية، نسأل الله حسنها

يقول مؤلفه تم طبع هذا الكتاب بمن الله وكرمه وتوفيقه لثلاث خلون من جمادي الأول سنة ١٣٧٨ من هجرة النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد بذلت الجهد في تصحيحه إلا الملزمة الأولى فقد قام بتصحيحها بعض الإخوان ولم يعرض ذلك على فوقع فيها من الأخطاء أكثر مما وقع في غيرها، أما السلامة من الخطأ في البلاد العربية في أكثر مطابعها فقد صار قريبا من المستحيل إن لم يكن، وذلك دليل على أن اللغة العربية في إدبار تشكو قلة الأنصار وتغلب لغات الاستعمار عسي الله أن يقيض لنا من ينصرها، وقد جمع هذا الكتاب على صغر حجمه نبذاً من العلم مفيدة وللجهالة مبيدة.

أسأل الله أن ينفعني وينفع به كثيراً من خلقه وأن يجعله عملاً متقبلاً، وأقدم شكري وثنائي لكل من ساعد في طبعه من إخواني الصادقين أخص بالذكر منهم الأستاذ الشيخ عبد الجبار الأعظمي، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.